قيمة التضحية

مفهوم التضحية

معنى التضحية لغة:

التضحية مصدر ضحى، يقال: ضحى بنفسه أو بعمله أو بماله: بذله وتبرع به دون مقابل.

معنى التضحية اصطلاحا:

بذل النفس أو الوقت أو المال لأجل غاية أسمى، ولأجل هدف أرجي، مع احتساب الأجر والثواب على ذلك عند الله عز وجل، والمرادف لهذا المعنى: الفداء، ومن معانيها: البذل والجهاد.

التضحية التي نقصدها ونريدها، هي: بذل ما يستطيع المسلم تقديمه وبذله من النفس والمال، والوقت والحياة والجهد، وكل شيء ابتغاء مرضاة الله وفي سبيله، لأجل إعلاء دينه سبحانه، وسيادة شرعه، وإظهار الحق، وكسر شوكة الباطل، ونشر الإسلام، وهداية الناس إلى صراط الله المستقيم، ليفوزوا بسعادة الدارين.

التأصيل الشرعي لقيمة التضحية:

ورد في القرآن والسنة آيات وأحاديث كثيرة ومتنوعة عن التضحية، والحث عليها، ومن هذه الآيات والأحاديث:

- قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة 21

أخبر الله تعالى أن القتال مكروه للنفوس؛ لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف، والتعرض للمتالف، ومع هذا، فهو خير . ا فيه من الثواب العظيم، والتحرز من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء، ونشر الخير ورفع الظلم عن المظلومين، والتضحية في سبيل الله بالمال والنفس.

- قال تعالى: (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾) الحديد

- قال جل شأنه: (هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾) محمد

- قال تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾) آل عمران

كذلك تدل وقائع التربية النبوية على أن الرسول ﷺ كان يشترطها، ويجعلها إشارة الإيمان وصدقه، والإنسان عنده ميل فطري إلى أن يضحي بنفسه وماله في سبيل المثل الأعلى، بل إن هذه التضحية هي أمر راسخ في فطرة الإنسان، وجزء من وجوده، وما تعظيم الشجاعة عند البشر إلا تقديرا لقيمة التضحية في سبيل المثل الأعلى، ولذلك جعل الجهاد أفضل الأعمال.

كان الرسول ﷺ قمة في الأخلاق الكريمة، وفي التضحية والشجاعة، وقد كانت حياته كلها تضحية في سبيل الإسلام؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أوذيت الله، وما يؤذى أحد، وأخفت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثون ليلة من بين يوم وليلة، وما لي ولبلال رضي الله عنه ما يأكله ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال» (رواه الترمذي).

وقد روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان الرسول ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾ [آل عمران:٩٢)، جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى أنزل عليك: ولن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»، وإن أحب مالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو بڑها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ! ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

أهمية التضحية للإنسان:

لقد اقتضت حكمة الله عز وجل ومشيئته أن تكون الأمة الإسلامية ذات رسالة سامية، وحاملة أمانة عظيمة وثقيلة، ألا وهي قيادة البشرية، والأخذ بيدها إلى الطريق المستقيم، فقال سبحانه:
(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة:143].

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ

فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾) [الحج].

ومن أجل أداء هذه الرسالة وتلك الأمانة، أمرهم الله عز وجل بالجهاد، إذ إنه تكليف قبل أن يكون تشريفا، وحيث أمروا بالجهاد لنصرة الدين، وهداية العالمين، فإن التضحية من لوازمه، بل لا يمكن أن تتحقق ثمرة، أو تحصل نصرة مع غياب التضحية.

وهكذا فهم المسلمون الأوائل وطبقوا هذا الفهم الذي رباهم عليه الرسول ﷺ، فظهر الدين مع كره الكافرين، وتبوأت الأمة مكانتها التي اختارها الله لها، وقامت بأداء الأمانة خيرى قيام، فعم الضياء والنور وتبدد الظلام، وسعد جميع الأنام بقيادة أمة الإسلام.

ثم إن العصر الذي نحياه يشهد تكالب الأعداء على الإسلام والمسلمين، ولا سبيل لدفعهم ورد عاديتهم من غير أن تكون لدى الأمة روح التضحية والإقدام.

لذلك فنحن مدعوون إلى التضحية من أجل إعلاء كلمة الله، والتمكين لدينه في الأرض وأداء الأمانة التي كلفنا الله بها، مثلما كان حال السابقين، والسلف الصالح، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وكذلك فإن منتهى آمال المسلم أن يفوز برضوان الله تعالى وجنته، ولكي يتحقق هذا الأمل لا غنى عن التضحية والعمل، فلا بد من البذل والمسارعة في الخيرات ما استطاع المسلم إلى ذلك سبيلاً.

صور التضحية ومظاهرها

إن من أهم المظاهر التي تدلل على تحقيق قيمة التضحية:

- عدم الانغماس في ملذات الدنيا والتعلق بها، وقصر الأمل في الدنيا، وتذكر الموت والآخرة.

  قال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾) [آل عمران]

- الثقة بوعد الله، واليقين الجازم بما أعده لعباده المؤمنين، والتخلص من الروح الانهزامية.

  قال تعالى: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾) سبأ

  وقال تعالى: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾) [آل عمران]

- حب الناس وحب الخير لهم.

  روي عن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم» (رواه مسلم).

  وروي أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» (رواه أحمد والترمذي والحاكم).

- التحلي بالشجاعة والإقدام وبعلو الهمة وبالكرم.

- مصاحبة أهل الخير والصلاح ذوي الخلق الكريم، الذين يضحون في سبيل نصرة دين الله؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» (رواه أبو داود والترمذي).

- التعرف على القدوات من السلف الصالح وأتباعهم والاقتداء بهم.

وصور التضحية عديدة نستقيها من الآيات القرآنية وسيرة رسولنا الكريم ﷺ الذي ضرب لنا أروع الأمثلة في التضحية لإيصاله الرسالة ونشر الدين، كما تزخر حياة الصحابة رضوان الله عليهم بتضحيات عظيمة تمثلت بما يلي:

- التضحية بالنفس.
- التضحية بالمال.
- التضحية بالجاه والسمعة.
- التضحية بالراحة.
- التضحية بالوقت والجهد.
- التضحية بالولد والزوجة والعائلة.
- التضحية بالبيت والوطن.

ثمرات التضحية:

للتضحية أعظم الآثار في حياتنا أفرادا وجماعات.

- الفرد الذي يربي على التضحية ويتعود عليها، ويتحلى بها؛ يكون قد قطع شوطا كبيرا في التخلص من سلطان الهوى، ونوازع الأثرة، وكان قادرا على مخالفة النفس الأمارة بالسوء، كما أن المسلم الذي اتصف بالتضحية وتخلق بها يفوز بمثوبة الله عز وجل، ويربح رضا الله سبحانه، ثم رضا الصالحين من عباده، كما أن الفرد الذي تعود التضحية لا يحزن على ما فات، ولا يفرح بما أوتي، وكذلك يكرمه الله في ذريته، ويخلف بالخير عليه.
- الأمة التي يتخلق أفرادها بالتضحية والبذل، لا شك في أنها تكون قادرة على إنجاز أهدافها، وتحقيق آمالها وطموحاتها، والوصول بعون الله إلى غايتها، كما أن هذه الجماعة أو الأمة تستعصي على الأعداء، وتتأبى عليهم، ويقذف الله مهابتها في قلوب أعدائها، فلا ينالون منها، فتعيش عزيزة كريمة مهابة، كما أن الأمة التي تعود أبناؤها البذل والعطاء، وتخلقوا بالتضحية، تكون في منجاة من الضوائق والأزمات، وتسلم كذلك من الشحناء والعداوات، ويحل الإيثار، وتنمحي الأثرة، وتسودها المحبة، وتزول منها البغضاء، ويعمها التواد والتآلف والتراحم، وتصير أهلا لرحمة الله، ومثوبته في الدنيا ويوم لقاه.